في أخطاء المؤرخين من منظور خلدوني

أ.د /شعيب مقنونيف / جامعة بوبكر بلقايد/ تلمسان

Throughout the historians errors from the Khaldunian perspective

Pr. Chaib Megnounif Tlemcen University /Algeria

الملخص

لما تعدّدت المراحل التي اجتازها التأليف التاريخي في الإسلام، بوصفه انعكاسا لمسيرة تطور الحضارة الإسلامية، وحين تمكن ابن خلدون من اكتشاف الخيط الذي يربط الماضي بالحاضر، استطاع، في ضوء ذلك، أن يكتشف الدوافع التي أدّت بالمؤرخين قبله إلى الوقوع في الخطأ، ممّا سيدفع به إلى التفكير في وضع قانون لتمييز الصدق من الكذب في الأخبار، ويكون معيارا صحيحا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه.

وهذا المقال الموسوم بـ " في أخطاء المؤرخين من منظور خلدوني" محاولة لتظهير ما وقع فيه المؤرخون من غلط وفق ابن خلدون، مع توضيح الآتي:

1- في مقصدية التاريخ عند عبد الرحمن بن خلدون
2- أهم مراحل التأليف التاريخي لدى المسلمين؟
3- ما هي الأسباب التي دفعت المؤرخين إلى الوقوع في الغلط و الخطأ؟

الكلمات المفتاحية: في أخطاء/ المؤرخين / منظور/ خلدوني

Abstract: Since there were many stages through which the historical opus in Islam passed by, as a reflection of the process of the development of Islamic civilization, while enabling Ibn Khaldun to discover the thread that connects the past with the present, he can, in the light of this, discover the factors that led the historians to fall into the error, which enhance him to establish a law that distinguishes truth from lies in collecting data with objectivity and honesty.

This article entitled "the historians errors from the Khaldunian perspective" is an attempt to display the mistake done by the historians according to Ibn Khaldun, with the following explanation:

1. Inthe meaning of history according to Abdul Rahman Ibn Khaldun.

2. The most important stages of the historical opus among Muslims.

3. What are the raisons that led historians to fall into mistakes and errors?

Key words: errors / historians / perspective / Khaldunian

أولاً- معنى التاريخ وأهميّته في الفكر الخلدوني:

لم تعد دراسة التاريخ قاصرة على مجرد سرد الحوادث التي وقعت في الماضي وكأنها ركام من الوقائع التي أفرزها هذا الماضي بصفة عشوائية. تؤدّي فيها الصدفة دورا

هاما، وإنما أصبحت تهتم أساسا بعملية تفسير التاريخ ومحاولة استخلاص معنى له، وبعبارة أخرى انصرف اهتمام الباحثين إلى محاولة التنبؤ بحركة العجلة التاريخية.

وقد كانت معرفة حوادث الماضي من الأمور التي شغلت الإنسان ولا تزال تشغله حتى يومنا هذا، وكان قد بدأ الاهتمام مع الإنسان القديم الذي حفظ أخبار أسلافه في صورة أغان وأساطير يشوبها كثير من الخيال لتتناقلها الأجيال.

وعلى الرغم من قدم اهتمام الإنسان بتاريخه فإن محاولات تفسير التاريخ والكشف عن قوانينه تعدّ حديثة نسبيا، فقد كانت معظم الكتابات التاريخية المبكرة تهدف إلى خدمة أغراض أخرى غير الغرض التاريخي نفسه؛ بمعنى أن القصص التاريخي أو الملاحم الشعبية والأساطير كانت هي الصورة الغالبة في معظم الكتابات التاريخية المبكرة.

ولكن التاريخ اليوم لم يعد مجرد سرد للحوادث يعتمد على الأسلوب القصصي والمحسنات البديعية، فاليوم يجاهد المؤرخ في سبيل إحياء خبرات الماضي، بطريقة أقرب إلى الموضوعية وأسلوب علمي سليم بعيد عن التحريات اللغوية ودون تشويه للحقائق. ولا يعني هذا أن نفقد التاريخ جماله وتشويقه وإنما المهم أن نحفظ للتاريخ صدقه وموضوعيته وذلك عن طريق تحديد الظاهرة أو المشكلة تحديدا دقيقا، ثم جمع الحقائق وتحليلها وفرض الفروض التي تفسر الحوادث والأوضاع، ومن ذلك نخلص إلى تسجيل النتائج و تفسيرها.

فهل كان " لمفلسف التاريخ " حظ من هذه الرؤية الحديثة للتاريخ على الصعيدين النظري أولا، والتطبيقي ثانيا؟

يقول عبد الرحمن بن خلدون:<< اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية إن هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم و الأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتّم فائدة الإقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدّين والدنيا فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان عن المزلاّت والمغالط لأن الأخبار، إذا اعتُمد فيها

على مجرد النقل، ولم تُحكّم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذّاهب، فربّما لم يؤمن فيها من العثور، ومزلة القدم والحيد عن جادّة في الصّدق، وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثّا أو سمينا، لم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها، بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار. فضلوا عن الحقّ وتاهوا في بيداء الوهم والغلط، ولا سيّما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات إذ هي مظنّة الكذب ومطيّة الهذر، ولا بدّ من ردِّها إلى الأصول وعرضها على القواعد>>[1].

وواضح من كلام ابن خلدون أن:<< نقل الحوادث لا يمثل سوى ظاهر التاريخ إذ التاريخ في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام و الدّول>>[2]. أما جوهر التاريخ فهو التمحيص والتحليل و<< مراعاة قواعد السياسية و طبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني>>[3].

ومن هنا نستنتج أن التاريخ عنده لم يبقى نقل الأخبار لا حياة فيها بل أصبح علما كسائر العلوم له أصوله و قواعده.

فابن خلدون في مقدمته على مبدأ منهجي يمكّنه من مطاردة وملاحقة الحدث التاريخي حتى إذا ظفر به أخذه من ناصيته وبدأ في عملية التشريح المتمثلة في << حسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبيهما إلى الحق وينكبان عن المزّلات والمغالط>>[4].

فابن خلدون ينساق في صميم الرؤية للتاريخ الحديث << الذي أصبح يهتّم بالبحث عن الحقيقة وعملية استخلاص الحقائق التاريخية وتفسيرها>>[5].

وبعد هذه الانطلاقة المنهجية المتمثلة في أخذ ابن خلدون بيد المؤرّخ وتوجيهه يعاود الكرّة ليحدّد له الهدف المتوخى من هذه الطريقة فيقول: << إذ هو – التاريخ–

يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم و الأنبياء في سيرتهم، و الملوك في دولهم و سياستهم، حتى يتم فائدة الإقتداء في ذلك لمن يرومه في أهوال الدين و الدنيا>>[6].

فكلمة الإقتداء في قول ابن خلدون السابق لها وزنها في ذات الوقت لأنها توحي بالاستمرارية التاريخية لعجلة الأحداث وهي عجلة تطوي أجيالا بعد أجيال فيكون الخلق أوفر لأنه يستفيد من الأحداث التي مر بها السلف فيفسرها و يستخلص العوامل التي تحكم فيها وربما تنبأ باحتمالات المستقبل استناد إلى المجموعة القوانين التي تحكم التطور البشري وهذا هو بالضبط الهدف الذي يراد للتاريخ في العصر الحديث.

كما أن لهذه الفكرة أهمية كبرى على الصعيد المنهجي أولا والمعرفي لأنها أصابت الطريقة القديمة في كتابة التاريخ بجراحات قاتلة فلم يعد التاريخ عند ابن خلدون << عملا أدبيا ووصفا رشيقا وأسلوبا أنيقا يتخلله كثير من الاستطرادات>>[7]، وإنما أصبح عملا يعتمد المباشرة في التعبير، بلغة مركزة تستخدم المصطلحات الدقيقة.

أمّا على الصعيد المعرفي فابن خلدون ينظر إلى الحدث التاريخي على أنه واقعة حاضرة كان الماضي يحملها في جوفه، أي ليس هناك وقائع منفصلة عن بعضها وإنما هي متّصلة بوشائج تتدخل في صياغتها عوامل اجتماعية وسياسية واقتصادية. وبعبارة أخرى فالتاريخ عند ابن خلدون حصيلة العوامل مجتمعة.

وهنا تبرز أصالة ابن خلدون عندما نراه لا يستعير قانون السببية المعروفلدى الفلاسفة ليطّبقه على التاريخ الذي تتحكم فيه << قوانين خاصة تخضع لها جميع شعوب الأرض في نشأتها وتطورها وانقراضها وأكثر أحوالها، ولو لم يكن في تلك القوانين ما في السببية الطبيعية من حتمية عمياء لأن من عواملها المتعدّدة شخصية الإنسان الحر>>[8].

ويقول ابن خلدون عن " فن التاريخ": << وفي باطنه- أي التاريخ- نظرُ وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق. وعلم بكيفيّات الوقائع وأسبابها عميق>>[9].

ويشير ابن خلدون ببراعة فائقة إلى أمر له خطورته في هذا اللون من البحث، وكأنه يريد أن يضع المؤرخين أمام مسؤوليتهم فيذكرهم برفق أن العمل التاريخي ليس سردا قصصيا لمجموعة من الأخبار وإنّما هو علم يحتاج إلى خطّة منهجية، أولا، و<< مآخذ متعدّدة ومعارف متنوعة>>[10]، ثانيا.

وهذا معناه أن ابن خلدون يتوجه بالنّقد الهادف إلى أولئك المتطفلين الذين لا يميّزون بين الحدث التاريخي بوصفه معطى موضوعي وبين السرد التاريخي الذي قد تلّفه غشاوة سميكة من الأهواء الشخصية والاعتبارات الذاتية التي تطمس معالمه و تقدمه مزيفا مشوها لا يمت إلى التاريخ الخالص بصلة[11].

غير أن ابن خلدون في سلفية توثيقية نمطية تطمئن بكل ارتياح إلى ما قيل في شتّى الحقب التاريخية ويبلغ في ذلك مبلغ الشطط إلى درجة أنه ينسى ما قاله في مبحث علم التاريخ فيتورط << في مثل ما تورط فيه المؤرخون من قبل، لأنه متأثر بمجد القدماء، وصلاح القدماء، وطهارة القدماء، وانحطاط المعاصرين، وفساد أخلاقهم وأحوالهم>>[12].

وربّما أمكن لنا القول إنّه وقع في مفارقة تتمثل في إصراره على تطبيق منهج علمي ألحّ عليه بكل ثقله من جهة، وعلى مستوى تطبيق هذا الأخير فلا يكاد ابن خلدون يبسط القول في أغلاط المؤرخين وتورطهم في ضروب من الخطأ في الحكم حتى نجده يسلك طريقهم المعروفة والتي هي أقرب إلى السّرد القصصي منها إلى الغربلة والتمحيص فهو<< إذا أراد أن يدفع عن الخليفة العباسي هارون الرشيد ما اتّهم به من العبث والمجون، لم يذهب مذهب المؤرخين في ذلك، وإنما تحدّث إليك بأن الرشيد كان يصلي، مائة ركعة في اليوم، وكان يحجّ سنة ويغزو سنة، أخرى، وإذا كان هذا شأنه فليس

من الممكن أن يعبث ولا أن يلهو. وهو إذا أراد مثلا أن يصحّح نسب الدولة الإدريسية في المغرب الأقصى لم يعمد إلى بحث تاريخي، وإنّما استدّل على صحّة هذا النسب بحديث شريف، فيه أن الولد للفراش وللعاهر الحجر>>[13].

فلنستمع له وهو يتحدّث في هذا الشأن: << وأمّا ما تُمَوِّه به الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر، واقتران سكره، بسكر النّدمان، فحاش لله ما علمنا عليه من سوء. وأين هذا من حال الرّشيد و قيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدّين والعدالة>>[14].

ونحن لا يعنينا أكان الرشيد يغزو سنة و يحجّ سنة ولا يعنينا من معاقرته الخمر أوعزوفه عنها وإنّما يعنينا منهج ابن خلدون العلمي في تدوينه التاريخ وهو منهج لا يتقبل ما يروى بسهولة ولا يرضى بالأخبار الجاهزة الناجزة وكأنّها لا غبار عليها.

فابن خلدون قد قيّد نفسه " في مقدمة المقدمة" وقيّد معه القارئ الذي لا يجد بدا من محاسبته، فهل يكفي أن ينتسب الرشيد للدوحة الكريمة لكي يجد ابن خلدون في ذلك مسّوغا لا بعاد تهمه معاقرة الخمر عنه؟؟؟.

ويرجع ابن خلدون ثانية وبنزعة قصصية قاتلة رفضها في نظرته إلى التاريخ ليقرر بكل بساطة أن الرشيد كان يشرب نبيذ التمر. أما الخمر فقد حرمها على نفسه. يقول: << وإنّما كان الرشيد يشرَب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق، وفتاويهم فيها معروفة، وأمّا الخمر الصِّرف فلا سبيل إلى اتّهامه به ولا تقليد الأخبار الواهية فيها>>[15].

ولو اقتصر الأمر على إيراد هذا الخبر لهان الخطيب كما يقال، ولكن ابن خلدون تورّط عندما عزم على أن يربط هذا السلوك بالخشونة البدوية في قوله:<< ولقد كان أولئك القوم كلهم بمنجاة من ارتكاب السّرف و التّرف في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم لما كانوا عليه من خشونة البداوة وسذاجة الدّين التي لم يفارقوها بعد>>[16].

وكلام ابن خلدون، فيه ما يجافي الحقيقة، لأن عصر هارون الرشيد شهد انقلابا حضاريا هائلا غيّر مجرى الحياة البدوية التي كانت في عهد بني أميّة.

ومؤرخو الآداب العربية، والحضارة العربية الإسلامية، من عرب وغيرهم، متّفقون على أن الحضارة العربية في القرن الثاني الهجري كانت حضارة فارسية أسهمت إلى حدّ بعيد في خلق الجيل الجديد؛ جيل المولدين، أي جيل الرشيد والحسن بن هانئ (أبو نواس) اللذين لم يكونا بمنأى عن التفاعل الحضاري للعصر، أي أنّهما كانا ينتميان إلى مجتمع عربي له من الخصائص الفارسية القسط الوافر، وهذا ما يطلق عليه علماء الاجتماع الحركة الذاتية للمجتمع. والحركة الذاتية للمجتمع العباسي كانت تتمثل في ما وصفه الأستاذ طه حسين جملة بأنه كان عصر شكّ ومجون بدأ بمعاقرة الخمر والأخذ بأسباب الترّف واللهو مرورا بالزّندقة وحرية المرأة، وانتهاءً بالغزل بنوعيه.

وهذا معناه أن القوم لم يكونوا على خشونة البداوة وإنما فتحوا أعينهم على مجتمع ودّعها بنهاية آخر خلفاء بني أمية.

أمّا عن سذاجة الدّين فيكفي أن نذكر قصيدة أبي نواس الشهيرة، والمعروفة بـ " مدّعي الفلسفة"[17] في مجادلة النظام إبراهيم زعيم المعتزلة لنقف على أن العصر شهد في المجال الفكري والدّيني تطورا ملحوظا وهو تطور قضى على هذه السذاجة الدينية.

وصفوة القول إن ابن خلدون شعر بالقيمة الموضوعية في الأبحاث العلمية، ونحن نعلم أن هذه الأخيرة من أصعب المقاييس في العلوم الإنسانية إذ أن الذاتية تتدخل دائما في كل ما هو إنساني.

ثانياً – مراحل التأليف التاريخي لدى المسلمين

منذ أن بلغ التاريخ كفن، قمة مجده على عهد الطبري والمسعودي (القرن الرابع الهجري)، وهو يتقهقر شيئا فشيئا، إلى أن أصبح في القرن الثامن(عصر ابن خلدون)، عقيما خاليا من كل فائدة.

ذلك أن التأليف التاريخي في الإسلام، قد مرّ بمراحل أربعة[18] خلال تدرجه نحو الانحطاط التام، ونعرض لهذه المراحل بشيء من الاختصار كالتالي:

المرحلة الأولى: وهي المرحلة التي بلغ فيها التأليف التاريخي في الإسلام أوجه على يد كبار المؤرخين أمثال الطبري والمسعودي، وهي مرحلة تمتاز بثلاث سمات أساسية؛ أولاها: الاجتهاد في جمع الأخبار واستقصائها من مصادرها المختلفة كالروايات الشفوية والصحائف المكتوبة، وتحمّل مشاق السفر للوقوف في المكان عينه على أخبار الأمم، وأحوالها. وثانيتها: حرص المؤرخين على التزام الأمانة والصدق فيما يكتبون، مما جعل مؤلفاتهم تحظى بثقة الجميع، وتصبح مصدرا لأخبار يوثق به، وطريقة في التأليف يقتدى بها، ولكن هذا لا يعني التسليم بشكل مطلق بما قاله هؤلاء، ليست مؤلفتاهم بمنأى عن النقد، و ليس من الضروري قبول أخبارهم كما هي، بل لا بد من نقدها والتأكد من صحتها: << والناقد البصير قسطاس نفسه في تزييفهم فيما ينقلون، أو اعتبارهم>>[19]. وأما السمة الثالثة: التي تتصف بها هذه المرحلة، فهي العمومية. فلقد كانت التواريخ في هذا العصر؛ عصر الطبري والمسعودي << عامة المناهج

والمسالك>>[20]. لقد كانت تواريخ "عالمية"، لا تتقيد بعصر أو جيل أو إقليم، بل تؤرخ للإسلام ومختلف البقاع التي استقر فيها، كما تؤرخ للأمم والأجيال المعروفة قبله.

وأما المرحلة الثانية: فهي مرحلة التواريخ الخاصة، عدل المؤرخ خلالها: << عن الإطلاق إلى التقييد، ووقف في العموم والإحاطة على الشأو البعيد، فقيد شوارد عصره، واستوعب أخبار أفقه وقطره، واقتصر على أحاديث دولته و مصره>>[21]. والسبب في ظهور هذه التواريخ الإقليمية هو انقسام الدولة الإسلامية إلى إمارات وممالك مستقلة، فنشأت من ذلك الحاجة إلى التأريخ لها وحدها، للتمكن من الإحاطة بأخبارها، والوقوف على تفصيل أحوالها.

بينما المرحلة الثالثة: هي مرحلة التقليد: فإذا كانت المرحلتان، الأولى والثانية، تتسمان بالتجديد، وتسايران حاجة العصر، فإن المؤرخين في المرحلة الثالثة هذه، مقلدون في الغالب.

وأما المرحلة الرابعة: وهي التي عرفها عصر ابن خلدون، فقد أصيب فيها التأليف التاريخي، بداء الاختصار، شأنه في ذلك شأن مختلف العلوم والفنون، حيث يعمد المؤلفون إلى تلخيص كتب المتقدمين في منظومات وأراجيز ومختصرات لا فائدة فيها.

لقد بلغت الكتابة التاريخية، إذن في عصر ابن خلدون درجة من الانحطاط لا مزيد عليها، فلم يعد التاريخ يلبي حاجة العصر، ولا يفي بالغاية التي يتوخاها الناس منه.

إن هذا المنهج الذي اتبعه المؤرخون القدامى كان يحتمه الغرض الذي كان الناس ينشدونه من التاريخ آنذاك.

على أن الأمر هنا لا يقتصر على مجرد تقليد هؤلاء لأولئك، من حيث الشكل و الطريقة، بل لقد نقلوا عنهم أخطاءهم من غير تمحيص ولا نقد كما وقعوا أنفسهم في أخطاء جديدة.<< فالتحقيق قليل، وطرف التنقيح في الغالب كليل، والغلط والوهم

نسيب للأخبار وخليل، والتقليد عريق في الآدميين سليل والتكفل على الفنون عريق وطويل، ومرعى الجهل بين الأمم وخيم وبيل>>[22].

ولنتساءل عن الأسباب و العوامل التي تدفع بالمؤرخين للوقوع في الخطأ والغلط؟؟

ثالثا: أسباب ودوافع الغلط والخطأ لدى المؤرخين

إن أسباب الغلط والخطأ في التاريخ والأخبار و الحكايات[23] حسب ما لاحظه ابن خلدون، وحلله وعلله في المقدمة، كثيرة و متنوعة، بعضها قصدي و بعضها لا قصدي.

الغلط القصدي: هو كل ما تعلّق بالأخبار الكاذبة التي يصنعها ويلفقها ويشيعها الدساسون، لترويج مذهب، أو نشر دعوة، أو تأمين منفعة، والوقائع المصطنعة التي يسعى المحتالون إلى التلبيس بها على الناس، لأغراض مماثلة لذلك.

و أما الغلط اللا قصدي: هو ما تعلق بالأخبار المخالفة للواقع، التي ينقلها بعض المخبرين والرواة، عن حسن نية، وذلك لعدم فهمهم أو عدم ضبطهم لما يسمعونه ويشاهدونه، أو لميلهم إلى المبالغة وولوعهم بالغرائب أو لاسترسالهم في قياس الماضي على الحاضر قياسا مطلقا.

وهناك نوع ثالث من الأغلاط، يختلف فيها القصدية واللا قصدية؛ وهي التي تحدث، حينما ينقل راو صادق أمين، عن مخبر دساس ملفق: لثقته به أو لعدم قدرته على تمحيص الأخبار لتي يسمعها؛ أو لعدم إقدامه على التمحيص، وذلك لموافقة الخبر للآراء التي يتشيع لها، والمذاهب التي ينتحلها؛ أو لعدم معرفته لطبائع الأشياء معرفة تساعده على التمييز بين الممكن والمستحيل من الأخبار.

ومن البديهي، أن هذا النوع الأخير يكسب خطوة خاصة، حينما يتعدد الرواة و يتوالى النقلة وتتزاحم وتتعاقب أسباب المخالفة للواقع، في الروايات.

يذكر ابن خلدون أمثلة عديدة على أغلاط المؤرخين في المقدمة التي خصصها لذكر " فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه، والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط"[24]. وأتى بأمثلة كثيرة متنوعة من مختلف المؤلفات والعصور.

و يمكن للدارس أن يجمل تصنيف عوامل الخطأ وأسباب الكذب في التاريخ، حسب ابن خلدون، في ثلاثة نقاط هي:

1 عدم التزام الموضوعية: سواء من جانب راوي الحادثة المشاهد لها، أو من لدن نقال الخبر. ومرد ذلك إلى: << التشيیعات للآراء والمذاهب. فإن النفس إذ كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه في التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من الكذب، وإذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة، وكان ذلك التشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع في الكذب ونقله>>[25].

2 عدم مراعاة قوانين الطبيعة: وذلك كأن ينقل المؤرخ أو الراوي أخبارا عن حوادث مستحيلة الوقوع، نظرا لكون قوانين الطبيعة لا تسمح بحدوثها. ومن أمثلة ذلك ما نقله المسعودي من أن<< الإسكندري غطس داخل صندوق من الزجاج داخل بحر...>>[26].

وهذا الخبر كاذب لأنه مخالف لقوانين الطبيعة لكون الغطس في الماء وداخل صندوق الزجاج لمدة طويلة يؤدي إلى الاختناق والموت.

3 الجهل بطبائع العمران: أي الجهل بطبيعة الظواهر الاجتماعية وكيفية حدوثها، ذلك لأن <<كل حادث من الحوادث، ذاتا كان أو فعلا لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته ما يعرض له من أحوال>>[27]. فكما أن للطبيعة قوانين معينة تسير حوادثها وفقها، فكذلك العمران البشري أو الاجتماع الإنساني له عوارضه الذاتية الخاصة به.

وفي نهاية المطاف، وعلى الرغم من الأخطاء التي وقع فيها كل من المؤرخين السابقين لابن خلدون، وابن خلدون نفسه، بعدهم، فإن هذا لا يقلل من قيمة الرجل من حيث أنه أدرك كلا من الجانب الذاتي والموضوعي في عملية خطيرة كالتأريخ.

إن الذين سبقوه كانوا يصدرون أحكاما لا تمت بصلة إلى التاريخ الموضوعي، إنما كانوا يصدرون أحكاما مرتبطة ارتباطا عضويا بالمناخ السياسي، بينما ابن خلدون أراد أن يكون حرا في تفكيره، على حين كان من سبقوه أحرارا وراء القضبان.

وهكذا فبينما نجد كبار المؤرخين للحضارة الإسلامية القدامى، قد اتجهوا إلى التاريخ بدوافع وأغراض دينية أو سياسية أو لمجرد التسلية أو من أجل إبراز دروس وعبر معيّنة، الأمر الذي يعني أن اهتمامهم بالتاريخ كان من أجل شيء آخر، لا من أجل التاريخ ذاته[28]، أي اتجهوا إلى سرد الحوادث التاريخية والتأريخ للشخصيات، ولم يعنوا بدراسة العوامل الاقتصادية والاجتماعية[29]، نجد ابن خلدون يصدر على العكس من ذلك، عن وعي تاريخي جادّ جعل اهتمامه بالتاريخ لذات التاريخ لا لشيء آخر، فيعقد في مقدمته فصولا طويلة للتحدّث على نظم الحكم والسياسة في العالم الإسلامي ويبحث ما عرفه المسلمون من مهن وصنائع ونظم اقتصادية وعلوم وفنون[30]، ذلك هو معنى تمييزه في فن التاريخ بين " ظاهره"، الذي، << لا يزيد على أخبار عن الأيام والدّول والسوابق من القرون الأوّل، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال..>>[31]، و "باطنه" الذي هو في حقيقة الأمر<< نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق>>[32].

ونجدد القول، بشيء من التأسف، إن ابن خلدون بدوره لم يلتزم بتطبيق المنهج المدّعى حين أقبل على كتابة مصنّفه المشهور "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"

الإحالات والهوامش:

[1] المقدمة: تاريخ العلامة ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة:بيروت، طبعة 1982، ص ص 12، 13.

[2] رمزي نجار: الفلسفة العربية عبر التاريخ، دار الآفاق الجديدة: بيروت، ط 02، 1979، ص 345.

[3] المقدمة، ص12.

[4] نفسه.

[5] د.سيد إبراهيم الجيار: دراسات في تاريخ الفكر التربوي، وكالة المطبوعات: القاهرة، ط 01، 1974، ص 14.

[6] المقدمة، ص 12.

[7] د.محمود عبد المولى: ابن خلدون وعلوم المجتمع، الدار العربية للكتاب: تونس، ط 02، 1980، ص 77.

[8] الفلسفة العربية عبر التاريخ..، ص 352.

[9] المقدمة..، ص2.

[10] نفسه: ص 12.

[11] ينظر: الفلسفة العربية عبر التاريخ..، ص ص 348، 349.

[12] ينظر: د.طه حسين: حديث الأربعاء، ج 02، دار المعارف: مصر، ط 12، ص 65.

[13] نفسه.

[14] المقدمة..، ص 26.

[15] نفسه: ص 29.

[16] نفسه.

[17] وطالعها:

دعْ عنك لومي فغنّ اللّوم إغراء　　　　وداويني بالتي كانت هي الدّاءُ

إلى أن يصل إلى قوله:

فقلْ لمن يدّعي في العلم فلسفة　　　　حفظت شيئا وغابت عنك أشياءُ

ديوان أبي نواس الحسن بن هانئ، حققه وضبطه وشرحه أحمد، عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي: بيروت، د. ط، د. ت، ص ص 5،6.

[18] للتّوسع أكثر في هذه المسألة ينظر:

*د.حسين عاصي: ابن خلدون مؤرخا، دار الكتب العلمية: بيروت، ط01، 1991، ص ص 97 – 100.

*د. محمد عابد الجابري: العصبية والدّولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، دار الثقافة: الدار البيضاء، ط01، 1971، ص ص 138- 142.

[19] المقدمة..، ص 352.

[20] نفسه.

[21] نفسه: ص353.

[22] نفسه: ص 351.

[23] لمزيد من المعلومات يطالع:

*د.ساطع الحصري: دراسات عن مقدّمة ابن خلدون، مكتبة الخانجي: القاهرة، ودار الكتاب العربي: بيروت، ط 03(موسعة)، 1967، ص ص 273- 275.

*ابن خلدون مؤرخا..، ص ص 97 – 100.

*العصبية والدّولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي..، ص ص 138- 142.

24 نفسه: ص ص 10- 32و ص ص 36-37.

25 نفسه: ص 409.

26 نفسه: ص 410.

27 نفسه.

28 ينظر: د. محمد عابد الجابري: نحن والتراث، المركز الثقافي العربي: الدار البيضاء، ودار الطليعة للطباعة والنشر، ط 02، 1982، ص 450.

29 ينظر د.ة.سيّدة إسماعيل كاشف، مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه، دار الرائد العربي: بيروت، 1983، ص 77.

30 نفسه.

31 المقدمة، ص 2.

32 نفسه.